والخير للامة » • ثم غادر الشاه بغداد ، وبعد ان ضم البصرة الى ممتلكاته ، سلك طريق تستر والحويزة حيث قضى على الامارة المشعشعية هناك ومد سيطرته على الأحواز كلها •

الصراع مع العثمانيين

ينتمي العثمانيون الأوائل الى أحد عشائر قبيلة الغز التركية ، تعرف باسم قابي ، هاجرت من المشرق الى الاناضول في القرن الثالث عشر للميلاد ، تحت ضغط تحرك المغول في اواسط آسيا • وتمكن عثمان (الذي ولد على حسب الروايات التاريخية سنة ١٢٥٨ ، أي سنة احتلال المغول بغداد) من تأسيس امارة قوية استظلت بدولة السلاجقة الروم أول الأمر ، وتوسعت على حساب الدولة البيزنطية وبسقوط دولة السلاجقة على يد المغول الايلخانيين ، تمكنت الامارة من استقطاب عدد من الامارات التركية المسلمة في الاناضول ، وهي الامارات الناشئة على انقاض دولة السلاجقة ، واستأنفت توسعها غرباً ليتحول، منذ سنة ١٣٤٥ ، الى اوربا الشرقية ، حيث استولت على اجزاء كبيرة منها ، ولم تنجح غزوات تيمورلنك المدمرة سنة ١٤٠٠م في القضاء على الدولة العثمانية ، رغم سيطرته على قسمها الآسيوي كله ، اذ سرعان ما استطاعت ان تعيد حكمها في هذا القسم ، وان تتوج أعمالها العسكرية ، في عهد محمد الفاتح ، بفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م ، وضم اجزاء اخرى من اوربا الشرقية • وما ان انتهى القرن الخامس عشر حتى كانت الدولة العثمانية تشمل الاناضول

واليونان وشبه جزيرة البلقان وجزائر بحر ايجه وجزيرة في جنوب ايطاليا .
وفي عهد سليم بن بايزيد (سليم الاول) ١٥١٢ـ١٥٢٠ اتخذت الدولة اخطر قراراتها حين استدارت لاول مرة منذ تأسيسها الى الشرق العربي . وقدر للعراق ان يتحول الى ميدان لصراع دموي بين السلالات الحاكمة في ايران والعثمانيين استمر بشكل متقطع حتى القرن التاسع عشر ، ذلك ان تقدم الصفويين نحو الغرب من ايران شكل بالنسبة الى السلطان العثماني خطراً لا يمكن تجاهله . كما ان اطماع الشاه اسماعيل التي لاتعرف الحدود، دفعته للعمل على مد سلطانه الى الاناضول وبلاد الشام من جهة ، والى الوقوف موقفاً متخاذلاً من التهديد البرتغالي المتسم بروح صليبية عارمة ضد العالم الاسلامي من جهة اخرى . وفي الوقت الذي كان فيه العثمانيون يركزون نشاطهم في شرقي اوربا والبلقان ، ويبذل المماليك ، في السنوات الاخيرة من عمر دولتهم ، محاولات مستميتة من اجل التصدي للخطر البرتغالي في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، كان الشاه اسماعيل يسعى الى استغلال الاوضاع القائمة لتحقيق اطماعه متجاهلاً المصالح الاسلامية . فرسم سياسته التوسعية على اساس التحالف مع البرتغاليين في الخليج العربي ، والتنسيق مع القوى المعادية للدولة العثمانية ودولة المماليك في مصر والشام . وبعث بوفوده الى أوربا مفاوضاً ملوكها للتحالف ضد سلطان مصر واقتسام ممتلكاته ، على ان تكون مصر وفلسطين من نصيبهم ، بينما يستحوذ هو على بقية بلاد الشام ، وبذلك يطل على البحر المتوسط . وقد تزامنت مشاريع الشاه هذه مع سعيه الى انتزاع الاناضول وانهاء الدولة العثمانية . ادرك السلطان سليم الاول خطر الصفويين فتحرك لاجتثاث ذلك الخطر . وبعد ان قضى على انصار الصفويين في الاناضول

تحرك على رأس جيش جرار صوب الشرق في ربيع ١٥١٤ باتجاه تبريز عاصمة الصفويين • ودحر في جالديران ٩٢٠/١٥١٤ الجيش الصفوي الذي يقوده الشاه اسماعيل في واحدة من أشد المعارك ضراوة ، وانتهت بتحطيم الجيش الصفوي وفرار الشاه جريحاً من ميدان المعركة • وتقدم سليم فدخل تبريز في ٤ أيلول • وبعد أن امضى في المدينة ثمانية أيام ، غادرها عائداً الى بلاده • وقد تضافرت عوامل عدة حالت دون تمكن السلطان من مواصلة تعقب اسماعيل والقضاء على الدولة الصفوية ، ، منها : قلة المؤن وامتداد خطوط المواصلات ووعورة المسالك وتقاعس الفرق الانكشارية (وهي عماد الجيش العثماني) عن التقدم •

أسفر الانتصار العثماني في جالديران عن نتائج مهمة ، فمع انه لم ينه الدولة الصفوية الا انه اصابها بضربة قاسية وجعلها تقبع في ايران ، كما سعى الشاه الى تأكيد تحالفه مع اوربا من اجل اضعاف العثمانيين فارسل وفوداً الى صربيا وهنغاريا ودول اوربية اخرى لهذا الغرض • وفيما يخص العراق ، فان العثمانيين مدوا سلطانهم على اجزائه الشمالية ، ومنها الجزيرة والموصل وسنجار وتلعفر والعمادية واربيل وكركوك ، وهيت وحديثة وعانة •

وقد زعزع انتصار العثمانيين النفوذ الايراني في المنطقة وهز كيان الموالين لهم ، ومهد السبيل لطردهم من بقية اجزاء العراق • ولم يترك احتلال الصفويين للعراق اثراً مهماً في تاريخ العراق سياسياً أو اقتصادياً ، حيث لم يتغير ما كان سائداً فيه في الحقب السابقة سوى تبديل اشخاص الحكام بآخرين ، وظل نظام الاراضي كما كان عليه في الماضي ، ولم يحدث ما يشير الى اهتمام باصلاح طرق الري •

حركة ذي الفقار الاستقلالية

٩٣٤ ـ ٩٣٦ هـ / ١٥٢٧ ـ ١٥٢٩ م

استغل أحد الزعماء الاكراد من قبيلة موصلو وهو ذو الفقار بن علي بك ضعف النفوذ الصفوي في العراق الاوسط والجنوبي ، فقام في صيف ١٥٢٧ بحركة بارعة اغتال فيها ابراهيم خان والي العراق الصفوي في أثناء توجهه للقاء الشاه طهماسب . وانضمت القوة التي كان يقودها ابراهيم خان على الاثر الى أتباع ذو الفقار وتوجه هو على رأس تلك القوات الى بغداد فدخلها وحاصر القلعة ثم استولى عليها واعلن استقلاله عن الدولة الصفوية . وقد تقرب من الأهلين « باشاعة العدل فالتف حوله الناس » .

ادرك ذو الفقار منذ بداية حركته ان امكاناته لا تخوله ازاء سطوة الصفويين . ولهذا بادر الى الاستعانة بالدولة السلطان سليمان وولاءه لها وأمر بذكر اسم السلطان سليمان القانوني (٩٢٦ـ٩٧٤هـ/١٥٢٠ـ١٥٦٦م) في الخطبة ونقش اسمه على النقود ، وبعث اليه بسفارة للاعراب عن ولائه له . لذلك جهز الشاه طهماسب الذي تولى العرش في ٩٣٠هـ/١٥٢٤م جيشاً كبيراً تقدم به الى بغداد وفرض عليها الحصار . وفشلت هجمات الجيش الصفوي كافة أمام صلابة المقاومة التي قادها ذو الفقار ، فتبرز أخ من اقرباء ذو الفقار قاما باغتيال الثائر غدراً فانهارت المقاومة وعادت بحطرة الصفويين الى العراق مرة اخرى . وكافأ الشاه المتآمرين فمنح احدهم منصب الامارة ولقبه سلطان على ذو الفقار كش (أي قاتل ذو الفقار) وعين الآخر والياً على المدينة كما عين عدداً آخر من الشخصيات الفارسية حكاماً على عدد من مدن العراق وامر بتعزيز دفاعات بغداد ثم عاد الى قزوين . وفي الوقت الذي سقطت فيه بغداد بيد الصفويين ، تعرضت البصرة الى الحملة البرتغالية الاولى بقيادة

عهد الحكم العثماني الأول

خطط العثمانيين العسكرية

في مطلع ربيع الثاني ٩٤٠/١٥٣٣ ، أصدر السلطان سليمان القانوني أمره الى الصدر الاعظم ابراهيم باشا بالتوجه على رأس قوة من ٨٠٫٠٠٠ رجل الى اذربيجان • ونجح هذا في اختراق اذربيجان واستولى على تبريز في تموز ١٥٣٤ • ولتحقيق نتيجة حاسمة ضد الصفويين ، سار السلطان على رأس جيش في ذي القعدة من السنة نفسها متجها الى تبريز • وفي نهاية ربيع الاول ٩٤١/١٥٣٤ ، التقى السلطان بصدره الاعظم قرب تبريز • ومن هناك تحرك على رأس القوات العثمانية متجها الى السلطانية جنوبي بحر قزوين للقاء طهماسب والاستيلاء على عاصمته قزوين والاجهاز على الدولة الصفوية • واوقع هزيمة كبيرة وماحقة بالجيش الصفوي بالقرب من نهر (قزل او زون) في الجنوب الشرقي من اذربيجان، وانفتح الطريق امامه الى قزوين • ولكن ما فشل فيه الشاه من مواجهة الجيش العثماني نجح فيه الطقس وسوء الاحوال الجوية ، حيث هطلت الامطار الغزيرة وتساقطت الثلوج واشتد البرد

وساءت الطرق فأصبح من العسير سير العربات وجر المدافع ، مما أثر كثيرا في نفسية الجنود العثمانيين ، فجعل تحقيق الهدف من التقدم امرا مستحيلا . فأمر السلطان جيشه بالانحراف نحو بغداد . ويعلق المؤرخ النهروالي على ذلك بالقول : « ... نزلت الثلوج الكثيرة وكانها الجبال وتوارى الفرس امام السلطان وصار الشاه يخادع ويخاتل فلزم التوجه الى بغداد لصون الرجال» .

وسلك السلطان طريق همذان بهدف السيطرة على الطريق التي تربط بغداد بالشمال والشرق ، وبذلك قطعت القوات العثمانية امكانية نجدة الصفويين لحاميتهم في العاصمة العراقية ، وأثر تقاعس طهماسب عن مواجهة الزحف العثماني سلبا في الامراء الخاضعين له والمنتشرين على الطريق الى بغداد ، فاعلنوا خضوعهم للعثمانيين . وعند اقتراب الجيش العثماني من بغداد هرب حاكمها محمد خان تكلو بعد ان يئس من وصول الامدادات اليه وثبت لديه ان الجيش الايراني الرئيس لم يجرؤ على خوض معركة توقف تقدم السلطان في قلب ايران نفسها .

احتلال بغداد وتوطيد السلطة الجديدة

ودخل الصدر الاعظم بغداد في ٢٤ جمادى الثانية ٩٤١/٣١ كانون الاول ١٥٣٤ ، وبعده بيومين دخلها السلطان سليمان وسط مظاهر الابهة والفخامة . ومن الجدير بالذكر ان السلطان لم يسمح لجيشه بدخول المدينة خوفا من عدم امكانية كبح جماحهم ، وشدد على عدم الحاق الاذى بالاهالي ، فكسب رضاهم ، كما سعى الى تعزيز ولاء السكان فقام بزيارات للاماكن المقدسة ورصد الاموال لها ، وامر ببعض المشاريع العمرانية ومن اهمها بناء سد ترابي لوقاية كربلاء من الفيضان وتوسيع الترعة المعروفة بالحسينية لجلب المياه